حقيقة الإعجاز القرآني عند الرافعي

د. عز الدين بوبيش
أستاذ مكلف بالدروس معهد
الآداب واللغة العربية
-جامعة قسنطينة-

ملخص

خصص الرافعي جزءا من عمله لإعجاز القرآن والبلاغة النبوية، وقد رأى أن الإعجاز القرآني يمثل قيمة دينية على مستوى الرسالة، وقيمة لغوية جمالية على مستوى الشكل والتي تتجاوز كل الإمكانيات البشرية، وقد ركز بصفة خاصة على أسلوب وتركيب النص القرآني، وقد تعرض إلى مجمل الأفكار والآراء التي سبقته والتي تناولت الموضوع نفسه، إمّا ناقدا أو معارضا لآراء العلماء السابقين، ولكي يعطي للحجج التي قدمها نوعا من الصلابة العلمية فقد قارن استعمال نفس الكلمات في النص القرآني والنصوص الأدبية لينتهي في الأخير إلى أن الإعجاز القرآني ناتج عن نظم الكلمات وطرائق توليدها للدلالات والمعاني.

Résumé

Rafii a consacré une partie de son oeuvre a l'inimitabilité du Coran et à l'éloquence du prophéte, L'inimitabilité du Coran constitue au niveau du message une valeur religieuse et au niveau de la forme une valeur linguistique qui dépasse toute compétence humaine, Il a mis l'accent surtout sur le style et la syntaxe du texte coranique, Il opére également un telescopage des idées qui ont traité de ce probléme, Il expose les conceptions des savants qui l'ont précédé en les critiquant et en présentant son point de vue, Pour donner à ses arguments plus de consistance, il compare l'usage des mêmes mots dans le texte coranique et dans les textes littéraires pour conclure que l'inimitabilité du coran provient de l'usage des mots et de leur modes de la production de sens

لقد خصّ "مصطفى صادق الرافعي" الجزء الثاني من كتابه (تاريخ آداب العرب) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ثم جعل هذا الجزء كتابا مفردا بذاته يحمل هذا العنوان ويعالجه.

وفي هذه الدراسة سنتناول من خلاله هذا الكتاب، قضية نقدية مهمة عالجها "الرافعي" بدقة ألا وهي حقيقة الإعجاز القرآني ومنزلة القرآن الكريم في اللغة وإعجازه فما هي حقيقة هذا الإعجاز ؟

يرى الرافعي أن القرآن الكريم بالمعنى الذي يُفهم من لفظ الإعجاز على إطلاقه، حين ينفى الإمكان بالعجز عن غير الممكن، فهو أمر لا تبلغ منه الفطرة الإنسانية مبلغا وليس إلى ذلك مأتى ولا جهة، وإنما هو أثر كغيره من الآثار الإلهية، يشاركها في إعجاز الصنعة وهيئة الوضع وينفرد عنها بأنها له مادة من الألفاظ كأنها مفرغة إفراغا من ذوب تلك المواد كلها، وما نظنه إلا الصورة الروحية للإنسان إذا كان الإنسان في تركيبه هو الصورة الروحية للعالم كله"(1).

والنتيجة التي انتهى إليها "الرافعي" من خلال هذا النص -أن الإعجاز يفوق فطرة الإنسان- تؤكد حقيقة الإعجاز التي تتمثل في عجز "الرافعي" وعجز سواه ممن سبقه من الباحثين في الوصول إلى اكتشاف أسرار الإعجاز التي تسمو فوق أذهان البشر، بمعنى أن الإنسان في حد ذاته لا يستطيع أن يصل إلى سر الإعجاز وإلا لما كان الإعجاز إعجازا، ألا يمكن القول "إن الإنسان لو اكتشفه لزال الإعجاز" ؟ ولكن مع ذلك فإن اكتشاف بعض جوانب الإعجاز أمر ممكن بحسب تخصص أهل العلم، كل في مجاله وقد رأى "الرافعي" أن البحث في حقيقة الإعجاز ينبغي ألا ينحصر في وجه بعينه، أو يُرد إلى ناحية خاصة مثلما

فعل من سبقه، كان يحصره "النَّظَّام" في الصرفة أو "الرماني" في الفصاحة أو "عبد القاهر الجرجاني" في النَّظْم، بل يجب النَّظَر إلى الإعجاز من جوانب كثيرة، كالجانب العلمي والأخباري والجانب الأدبي واللغوي والجانب النفسي، والجانب البلاغي.

ومن خلال هذه الجوانب جميعا يتوصل "الرافعي" إلى أن دليل سبيل الإعجاز هو ذلك التحدي الصارخ الوارد في القرآن واختلاف آياته، وعدم المعارضة له، كما سنرى.

فالرافعي يقرر أن التحدي الذي تكرر في مواضع متفرقة من القرآن الكريم في أن يأتوا بمثله أصدق دليل على إعجازه وأنّ سكوت العرب عن هذا التحدي بالرغم من حميتهم وأنفتهم وكبريائهم أقوى شاهد على إقرارهم بالعجز ومن المعلوم أن الله تحدى العرب أولا بالقرآن كله في قوله عز وجل "فلياتوا بحديث مثله" (2)، فلما ظهر عجزهم عنه تحداهم بعشر سور في قوله : "قل فأتوا بعشر سور مثله" (3)، ثم لما عجزوا عنها أيضا تحداهم بسورة واحدة في قوله: "فأتوا بسورة مثله" (4)، فلما ظهر عجزهم عنها أيضا لزمتهم الحجة لزوما واضحا، وانقطعوا انقطاعا واضحا.

ويفسر "الرافعي" هذا التدرج في أمر التحدي بأنه سلوك منطقي وسبيل من سبل الإقناع العقلي حتى تكون الحجة أو البرهان أظهر (5).

بعد ذلك نرى أن "الرافعي" ينتقل إلى الحديث عن أسلوب القرآن الذي هو مادة الإعجاز في كلام العرب كله، وإلى نظمه الذي لا يرقى إليه عقل بشري، وينتهي إلى القول إن سر الإعجاز هو في النظم، وقد حدّد جهات هذا النظْم في

الحروف والكلمات والجمل.

فبالنسبة للحروف وأصواتها : يرى "الرافعي" بأن إعجازها يكمن في روح الانسجام المتولد من ترتيب أصواتها ومخارجها حسب طبيعة مقام الكلام باعتبار أن "مادة الصوت هي مظهر الإنفعال النفسي، وأن هذا الانفعال بطبيعته إنما هو سبب في توزيع الصوت"(6).

وهذا ما لا يتوافر في غير أحرف القرآن وأصواته، لضعف النفس البشرية ونقصها، فربط الألفاظ والأصوات بالعواطف أمر لا نكاد نجد له أثرا بهذا الوضوح عند القدماء ممن تعرضوا لإعجاز القرآن قبله، صحيح أن "ابن سنان الخفاجي" أرجع الإعجاز في الفصاحة(7)، وهو بعض ما ذهب إليه "الرافعي" حين تحدّث عن الحروف وعن بيان الإعجاز من خلالها، ولكن "ابن سنان" كان يتعامل مع اللغة باعتبارها أصواتا معبّرة عن النفس "كأن ألفاظه عواطف تتغنى"(8) ولا ينبغي أن نفهم من هذا أن "الرافعي" قد أهمل الناحية المعنوية إذ أننا نجده في موضع آخر يقول: "الأصل في نظم القرآن أن تُعتبر الحروف بأصواتها وحركاتها ومواقعها من الدلالة المعنوية" (9) وفي هذا يلتقي مع "عبد القاهر الجرجاني" حين تساءل عن أسرار الإعجاز بقوله : "أفترى لشيء من هذه الخصائص التي تملأك بالإعجاز روعة وتحضرك عند تصورها هيبة تحيط بالنفس من أقطارها تعلقا باللفظ من حيث هو صوت مسموع، وحروف تتوالى في النَّطق أم ذلك لما بين معاني الألفاظ من الإتساق العجيب"(10)، من هذا نستنتج أن "الرافعي" لم يهمل جانب المعنى وهو الأمر الذي كان يركز عليه "عبد القاهر الجرجاني" وإن كان هذا الأخير كما يفهم

من النص لا يعطي أهمية كبرى للناحية الصوتية بخلاف "الرافعي" الذي رأى الإعجاز قائما في الجانبين معا وعلى مستوى واحد.

وبالنسبة للكلمات وحروفها : يرى "الرافعي" أن إعجازها يكمن في مواقعها ومادامت كذلك فهي من بعض إعجاز القرآن وقد تناول الشبهة التي ألحقت ببعض آيات القرآن ومنها تلك التي وقف عندها "الخطابي"، كحرف الباء في قوله تعالى : "ومن يرد فيه بالحاد بظلم"(11) فقد روى "الخَطّابي" أن بعض من كانوا يطعنون في أسلوب القرآن كانوا يقولون : لو قيل (ومن يرد فيه الحادا بظلم) كان كلاما صحيحا لا يشكل معناه ولا يشتبه (12)، ورد عليهم "الخطابي" بقوله: "وأما دخول الباء فيه فإن هذا الحرف كثيرا ما يوجد في كلام العرب الأول الذي نزل القرآن به وإن كان يعز وجوده في كلام المتأخرين"(13)، "والمعنى : ومن يرد فيه إلحادا بظلم، والباء تُزاد في مواضع من الكلام ولا يتغير به المعنى" (14).

وإذا كان "الخطابي" كما نرى يجعل الباء في هذه الآية زائدا فإن "الشريف المرتضي" لم يذهب إلى ذلك وإنما ذهب إلى أنه لم يأت إلا لزيادة فائدة الإختصاص. قال : فأما قوله تعالى : "فبما رحمة من الله لنت لهم" (15)، وتقدير قوم إن "ما" ها هنا زائدة فليس الأمر على ماظنّوه، لأن من شأنهم ألاّ يدخلوا "ما" ها هنا إلاّ إذا أرادوا الإختصاص وزيادة فائدة على قولهم : "فبما رحمة من الله لنت لهم"، لأن مع إسقاط "ما" يجوز أن تكون الرحمة سببا للّين وغيرها روعة، ولا يكادون يدخلونها مع "ما" إلا والمراد أنها سببه دون غيرها، فقد أفادت اختصاصا لم يُستفد قبل دخولها" (16).

ولعلّ من المفيد أن نذكر أيضا أن "عبد القاهر الجرجاني" في "أسرار البلاغة"

عرض للآية ورفض أن يكون في القرآن حرف لا معنى له لأن وجود الحرف لا يمكن أن يكون إلا بوجوب معناه معه وحدّد هذا المعنى الذي يفيده حرف "ما" في الآية وقال إنه يفيد التأكد والمجاز (17)، وهو ما ذهب إليه "الرافعي" حين تعرّض للآية نفسها فأبطل أن يكون في نظم القرآن حرف زائد لأن هذه الحروف تفيد إفادة جديدة في موقعها سواء أكانت هذه الفائدة من جهة المعنى أم من حجة الموسيقى وتكسب الكلام رونقا وجمالا يقول : "إن في هذه الزيادة لونا من التصوير لو هو حُذف من الكلام لذهب بكثير من حسنه وروعته، فإن المراد بالآية ....، تصوير لين النبي -صلى الله عليه وسلم- لقومه، وإن ذلك رحمة من الله، فجاء هذا المدّ في "ما" وصفا لفظيا يؤكد معنى اللين ويفخمه، وفوق ذلك فإن لهجة النطق به تشعر بانعطاف وعناية ولا يُبتدأ هذا المعنى بأحسن منها في بلاغة السياق، ثم كان الفصل بين الباء الجارة ومجرورها (وهو لفظه رحمة) مما يلفت النفس إلى تدبر المعنى ويُنبه الفكر على قيمة الرحمة فيه، وذلك كله طبيعي في بلاغة الآية كما ترى (18) فالذي يضيفه "الرافعي" إلى من سبقه من القدماء الذين تعرضوا لهذه المشكلة يتمثل في الموسيقى وأثرها في نفس الإنسان وهو ما يبين استفادة "الرافعي" من ثقافة عصره، واستغلالها في قراءاته الجديدة للتراث، أما علاقة تلك الزيادة بالناحية النفسية فقد سبقه إليها كما رأينا "الشريف المرتضى" ومع ذلك فإن الرافعي لم يُحل إليه.

ويضيف "الرافعي" إلى هذا المثال أمثلة أخرى حسب اختلاف أوجه الإعجاز، ولا ينوع في المثال الواحد إلا عندما يحسّ باستعصاء فهمه، يقف مثلا : عند بعض الألفاظ التي وردت في القرآن الكريم على صيغة الجمع ولم يجد لها

كلمة واحدة على صيغة المفرد فيقول : "ترى بعض الألفاظ لم يأت فيه إلاّ مجموعا ولم يستعمل منه صيغة المفرد، فإذا احتاج إلى هذه الصيغة استعمل مرادفها : كلفظة (اللّب) فإنها لم ترد إلاّ مجموعة كقوله تعالى : "إن في ذلك لذكرى لأُولي الألباب" (19).

وقوله : "وليذكر أولو الألباب" (20)، ولم تجيء فيه مفردة، بل جاء في مكانها (القلب) وذلك لأن لفظ الباء شديد مجمع، ولا يفضي إلى هذه الشدة إلا من اللاّم الشديدة المسترخية، فلمّا لم يكن فصل بين الحرفين يتهيأ معه هذا الانتقال على نسبة بين الرّخاوة والشدة، تحسن اللّفظة مهما كانت حركة الإعراب فيها، نصبا أو رفعا، أو جرا، فأسقطها من نظمه البتة على سعة ما بين أوله وآخره، ولو حسُنت على وجه من تلك الوجوه لجاء بها حسنة رائعة، وهذا على أنّ فيه لفظة (الجُبّ) وهي في وزنها ونطقها، لو لا حسن الائتلاف بين الجيم والباء من هذه الشدّة في الجيم المضمومة" (21).

وكذلك قال في لفظتي (الكوب) و (الأرجاء) اللّتين جاءتا في القرآن على صيغة الجمع ولم تأتيا على صيغة المفرد (22)، وعكس ذلك ساق لفظه (الأرض) وقال : "فإنها لم ترد فيه إلا مفردة فإذا ذكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة في كل موضع منه ولمّا احتاج إلى جمعها أخرجها على هذه الصّورة التي ذهبت بسر الفصاحة وذهب بها، حتى خرجت من الرّوعة بحيث يسجد لها كل فكر سجدة طويلة وهي في قوله تعالى : "الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن" (23)، ولم يقل وسبع أرضين، وغيرها من دلائل الإعجاز التي قد يقف عندها العقل البشري حائرا في مثل نظمها وما ينجم عنه من تقديم وتأخير وتعريف وتنكير، وفي مثل سرد الأخبار وذكر أسرار علمية لم

يكتشف العلم إلاّ بعضها في القرن العشرين، إلى غير ذلك من العلامات التي يستوقفنا "الرافعي" أمامها إما شارحا أو معلقا دون أن ينتقل من موضوع إلى موضوع، إلاّ إذا تأكد من بلوغنا الهدف الذي يسعى إلى تبليغه لنا.

أما بالنسبة للجملة وكلماتها : فإن أوجه الإعجاز فيها هو دقة تركيب الكلام الذي انتظم من الصوت في الحرف إلى الحرف في الكلمة للدّلالة على معنى هو من أسرار تركيبها وإن من أعجز ما يحقق هذا الإعجاز هو أن معاني جمل القرآن لو ألبست ألفاظا أخرى من نفس العربية ما جاءت في نمطها وإيقاعها، ولا أدّت ما أدته الكلمات التي هي أصل الإعجاز في هذا الترتيب الخالد الذي هو القرآن، حيث يوّضح "الرافعي" عوالم اللّغة فيقسمها إلى نوعين رئيسيين : النوع الأول مثله لغة التّواصل العادية التي تشكل بالنسبة إليه " لاصقات " جامدة تشير إلى الواقع وتبرزه في أعظم مجالاته العقل فبها يعرف السامع أن الشجرة / شجرة / وأن القمر / قمر / وهذه الوسيلة لا يختلف فيها اثنان من منظومة لسانية واحدة فهي كالهواء والطعام والشراب، ولذا فإنها لا تميز شخصا عن شخص.

أما الشكل الثاني فهو اللّغة النفسية أي تلك اللّغة التي تضع على نفس متلقيها طلاء يحمل لونا معيّنا يقصده الأديب وهذا ما يميّز الأديب عن الأديب فعبقرية الحس النفسي لدى الكاتب تجعله يوازن بين سلاسل اللغة وجزئيات، الواقع الذي تعبر عنه فيشعر القارئ أنه يتحسس هذا الواقع تحسسا فيه لذة، لأنه يراه من خلال اللغة، وليس من خلال الرؤية السطحية للأشياء.

ثم يتطرق بطريقة غير مباشرة إلى أن هذه الخاصية وإن امتاز بها أديب ما أو مجموعة أدباء في عصر ما فإنها لا تتجاوز التدقيق في جزئية عصر معين

استمد منه الأديب خبرته الدلالية والموسيقية، وإن تجاوزه قليلا بعض النبغاء فإن القرآن يفصّل اللغة تفصيلا دقيقا جميلا مع كل العوالم التي يعيشها الانسان أو التي لم يعشها، فيعبر عن نفسه الإنسان بشكل يجد كل قارئ نفسيته فيه فينجذب إليه، وهذا ما لا يحققه الأديب، لأنه إن مس شعور إنسان معين بأنه قد يمر دون أن يلفت انتباه شعور شخص آخر، وكذلك بالنسبة لجزئيات الواقع بمعناه الواسع، فهي مركزة في لغة القرآن، فلا تمر جزئية منه دون أن تجد لها صورة فيه وهذا ما يتعذّر بل ما يستحيل تحققه في كتابة إنسان.

إذن فعمومية التعبير النفسي وعمومية الوجود الواقعي في لغة القرآن كما يرى "الرافعي" هي سر إعجازه ولهذا فقد تُنهك بلاغات الشعوب سواء أطال الزمن أم قصر وذلك توضيح العالم النفسي والواقعي الذي يعبر عنه وهو محدود طبعا.

ولكن لغة القرآن سرمديّة لتعبيرها عن شمولية الواقع المعيشي بمختلف أنواعه وأشكاله (24).

الهوامش

1- مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 156.
2- سورة الطور، الآية 34.
3- سورة هود، الآية 14.
4- سورة يونس، الآية 38.
5- مصطفى صادق الرافعي. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 170.
6- المصدر السابق، ص 215.
7- ابن سنان الخفاجي : سر الفصاحة، ص 14.
8- مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 213.
9- المصدر نفسه، ص 224.
10- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص 37.
11- سورة الحج، الآية 25.
12- الخطابي : بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص 39.
13- المصدر نفسه، ص 45.
14- المصدر نفسه، ص 48.
15- سورة آل عمران، الآية 159.
16- الشريف المرتضي : أمالي المرتضي، ج2، ص 313.
17- عبد القاهر الجرجاني : دلائل الإعجاز، ص 368،363.
18- مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 231.
19- سورة الزمر، الآية 21.
20- سورة إبراهيم، الآية 52.
21- مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 232.
22- المصدر السابق، ص 232-233.
23- سورة الطلاق، الآية 12.
24- مصطفى صادق الرافعي : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ص 236، 248.

قائمة المصادر

القرآن الكريم

1- الجرجاني، عبد القاهر : الرسالة الشافعية، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق : محمد خلف الله أحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة 1976.

2- الجرجاني، عبد القاهر : دلائل الإعجاز، تصحيح : محمد عبده محمد محمود، دار المعرفة -بيروت 1981.

3- الخطابي، أبو سليمان : بيان إعجاز القرآن ، ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، تحقيق : محمد خلف الله أحمد ومحمد زغلول سلام، دار المعارف بمصر، الطبعة الثالثة 1976.

4- الخفاجي، ابن سنان : يسر الفصاحة، دار الكتاب العلمية -بيروت، الطبعة الأولى 1982.

5- الرافعي، مصطفى صادق : إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي-بيروت.

6- المرتضي، الشريف : أمالي المرتضي، الجزء الثاني، تحقيق : أبو الفضل إبراهيم، دار الكتاب العربي -بيروت الطبعة الثانية 1967.